جدلية الممارسة الخطابية والتشييدات الاجتماعية

أ.م.د.حيدر غضبان محسن
جامعة بابل/ كلية الآداب
Haider11291@gmail.com

الملخص:

يحاول هذا البحث الكشف عن تصوّرات المقاربة الجدلية العلائقية بين النارسات الخطابية والتشييدات الاجتماعية، وهي من مقاربات التحليل النقدي للخطاب، التي تنظر إلى التأثير المتبادل بين الخطاب والممارسات الاجتماعية. ويتحرى البحث الإجابة عن جملة أسئلة، هي: متى يكون الخطاب خاضعا للنُظُم الاجتماعية؟ ومتى يكسر الخطاب هيمنة النُظُم الاجتماعية؟ محاولة منه للمقاومة وخلق صراع اجتماعي لتغيير تلك النُظُم وإعادة تشييدها؟ وما هو الفرق بين جدلية الخطاب والتغيير الاجتماعي ومحاولة تحسين الأداء الاجتماعي بالخطاب؟ وبأي الاتجاهين يهتم التحليل النقدي للخطاب؛ أبالجدلية أم بتحسين الأداء؟ وما هي صلة جدلية الخطاب والتغيير الاجتماعي بالتسليع وإعادة الإنتاج؟

يهدف هذا البحث من الإجابات عن تلك الأسئلة إلى إعادة قراءة المقاربة الجدلية العلائقية التي أرسى مبادئها نورمان فيركلاف في دراساته، وإعطاء تصوّر عن تلك المقاربة يتّسم بثلاثة أمور، أولها: شمولية الرؤية لتلك المقاربة، باستطلاع مؤلفات فيركلاف ومراعاة التطوّر الفكري الذي مرّت به المقاربة إلى أن غدت على ما هي عليه؟ والأمر الثاني: هو إعطاء صورة، أظنُّها جديدة ومغايرة عن الدراسات التي عرضت للمقاربة الجدلية العلائقية التي لم تراعِ التسلسل الزمني لتطوّر المقاربة، إذ تتبنى بعض الدراسات آراء فيركلاف في مرحلة زمنية كان قد تخلّى عنها في مراحل زمنية أخرى، ولن أصبّ اهتمامي بالموازنة بين ما أعكسه من تصورات لتلك المقاربة في هذا البحث وبين الدراسات السابقة التي وصفتها، تاركا للقارئ الموازنة والتقييم، إذ هدف البحث هو السعي إلى إعطاء تصوّر واضح وشامل لتلك المقاربة. والأمر الثالث: أن هذه المحاولة في وصف تلك المقاربة ما هي إلا مقدّمة نظرية تؤسس لدراسة إجرائية لاحقة بها.

من هنا اقتضت طبيعة البحث أن ينبني على سبعة محاور: الأول منها لبيان رؤية فيركلاف في مفهوم جدلية الخطاب والتغييرات الاجتماعية. وعالج الثاني مكونات النظام الاجتماعي ومنزلة الخطاب منها؛ بإثبات أن الممارسة الخطابية هي جزء من الممارسة الاجتماعية. أما المحور الثالث فاهتم بالكشف عن مفهوم تسليع الخطاب –بتصوّر فيركلاف– ومكوناته وشروطه والنظر إلى الوظائف الخطابية في ضوء فكرة التسليع، وحاول المحور الرابع إثبات تأثير الخطاب في التشييدات الاجتماعية، واستجلاء شروط ذلك التأثير، ومجالاته. ودرس المحور الخامس جدلية الخطاب والتغيير الاجتماعي، وعلاقة التحليل النقدي بالخطاب بالبحث الاجتماعي، والمنهج المتبع في دراسة جدلية الخطاب والتغيير الاجتماعي. ولخّص المحور السادس نتائج البحث. واقترح المحور السابع توصيات البحث، ثم ختمتُ البحث بقائمة المصادر التي كانت موردا للبحث في بناء تصوّراته.

الكلمات المفتاحية: تحليل الخطاب– التحليل الاجتماعي للخطاب – التحليل النقدي للخطاب

The Dialectic of Discourse Practice and Social Constructions

Assist. Prof. Haider Ghadban Mohsen
University of Babylon / Faculty of Arts
Haider11291@gmail.com

Abstract

This research attempts to uncover perceptions of the dialectical relational approach, an approach to critical discourse analysis, which looks at the mutual influence between discourse and social practices. The research investigates the answer to a number of questions: When is discourse subject to social systems? When does discourse break the hegemony of social systems, trying to resist and create a social struggle to change and reconstruct those systems?

What is the difference between the dialectic of discourse, social change and the attempt to improve social performance with discourse? In which direction is critical analysis of discourse, dialectic or performance improvement? What is the relevance of the dialectic of discourse and social change to commodification and reproduction?

This research aims from the answers to these questions to re-read the dialectical relational approach established by Norman Fairclaugh in his studies, and to give a perception of that approach characterized by three things; first, the comprehensiveness of the vision of that approach, by exploring the writings of Fairclaugh and taking into account the intellectual development that the approach went through until it became what it is? The second thing is to give a picture, I think it is new and different from the studies that presented the dialectical relational approach that did not take into account the chronology of the development of the approach, as some studies adopt the views of Fairclaugh at a time stage that he had abandoned at other stages of time, and I will not be interested in balancing between what I reflect from the perceptions of that approach in this research and the previous studies that I described, leaving the reader to balance and evaluate, as the goal of the research is to seek to give a perception that I think is sound and comprehensive for that approach. Thirdly, this attempt to describe this approach is only a theoretical prelude that establishes a subsequent procedural study.

Hence, the nature of the research required that it be based on seven axes; the first of which is to show Fairclough's vision in the concept of dialectic of discourse and social changes. The second dealt with the components of the social system and the status of discourse thereof, proving that discursive practice is part of social practice. The third axis was concerned with revealing the concept of commodification of discourse - with the perception of Fairclaugh - and its components and conditions, and looking at the discursive functions in the light of the idea of commodification, and the fourth axis tried to prove the impact of discourse on social constructions, and to clarify the conditions of that influence, and its fields. The fifth axis examined the dialectic of discourse and social change, the relationship of critical analysis to discourse with social research, and the method used in studying the dialectic of discourse and social change. The sixth axis summarized the results of the research. The seventh axis proposed the recommendations of the research, and then concluded the research with a list of sources that were a resource for research in the news of its perceptions.

Keywords: Discourse Analysis - Social Discourse Analysis - Critical Discourse Analysis

١.جدلية الخطاب والهياكل الاجتماعية:

نتبنى في هذه المفردة منطلقات نورمان فيركلاف في رسم العلاقة بين الخطاب والبناء الاجتماعي، إذ العلاقة بينهما هي علاقة جدلية عنده. وينحو فيركلاف في تأطير مفهوم العلاقة الجدلية بين الخطاب والبناء الاجتماعي، هما؛

١.١.العلاقة التفاعلية: وهو مصطلح اجترحُه للمفهوم الأول لمعنى العلاقة الجدلية بين الخطاب والبناء الاجتماعي عند فيركلاف، بمعنى أن يؤثر أحد الطرفين في الآخر، وأن يكون أحدهما سببا في صيرورة الآخر، يقول فيركلاف: "فنحن نرى أن الخطاب يشكله ويقيده البناء الاجتماعي بأوسع معانيه، وعلى جميع المستويات.... ونرى من ناحية أخرى أن الخطاب ذو قدرة على التكوين الاجتماعي،.... فالخطاب ممارسة لا تقتصر على تمثيل العالم بل تتجاوز ذلك إلى الدلالة عليه: أي إنه يكوّن العالم ويبنيه من زاوية المعنى"(١). من هنا يرى فيركلاف أن "الخطاب لا يقتصر على تصوير أو تمثيل كيان أو علاقات اجتماعية، بل إنه ينتج أو يشكّل هذه الكيانات والعلاقات"(٢)، ويرى أيضا "أن التغيرات الاجتماعية غير محصورة بتأثير الخطاب فقط، ولكن للخطاب مساهمة كبيرة في إحداث تلك التغييرات"(٣). إن سبب تبنّي فيركلاف للمقاربة الجدلية هو "لتجنب المغالاة في هيمنة تأثير أحد الطرفين على الآخر، فليس الخطاب تصوّرا للنظم الاجتماعية فقط، وليس الخطاب مصدرا للبناء الاجتماعي فقط"(٤). فالعلاقة بينهما، من حيث التأثر والتأثير، هي علاقة جدلية أو تفاعلية –كما ذكرتُ– وتبادلية وتعاكسية.

ويمكن تأكيد نظرة فيركلاف الجدلية هذه بتحليل خطاب المنافقين بوصفه ممارسة خطابية اجتماعية إنسانية سلبية وعامة تتجلى في كل زمان أو مكان. فالمنافق من لا يتوافق حديثه مع فعله، أو بالعكس، يقول تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۖ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران/١٦٧). أيهما أسبق عند المنافق؛ القول أم الفعل (عدم العمل)؟ هل المنافق الذي يعمل بخلاف ما يقول أو يقول بخلاف ما يعمل؟ إذ يمثل القول حدثا خطابيا، والعمل حدثا اجتماعيا سلوكيا. ومما لا شكّ فيه أن الأمرين صحيحان. ففي قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾، نرى أن الكذب في القول معبّر عن الفعل ولاحق له. ويظهر في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۘ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون/١)، أن كذب القول لاحق للنوايا أيضا، وهو ما يؤكده قوله تعالى سابق الذكر: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾. ولعلنا نجد في مواضع النقاق سبْق أحدهما على الآخر، فقد ورد في مأثور الحديث النبوي الشريف قوله (ص): "آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان"[٥]. فالحدث الخطابي لاحق للفعل الاجتماعي في الآية الأولى من آيات المنافق، (إذا حدّث كذب)؛ فالحدث واقع ويأتي المنافق لينقله بطريقة مكذوبة، ويسبق الخطاب الحدث الاجتماعي في الآية الثانية من آيات المنافق؛ (إذا وعد أخلف) فالوعد –فعل كلامي التزامي بتعبير سيرل–[٦]، وتنفيذ الوعد من عدمه لاحق للخطاب، ويشابه هذه الظاهرة قوله (ص): "المتشبّع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبي زور"[٧]. وفيه يتبدى سبق الوعظ على الحدث الاجتماعي بدلالة أداة الجزم (لم) التي تصرف زمن الفعل المضارع إلى الزمن الماضي. أما الآية الأخيرة في قوله (ص): (إذا اؤتمن خان)، فهي ذات مظهر اجتماعي بحت، ويتجلى الحدث الخطابي فيها بوصفه جزءا من مجموعة أحداث اجتماعية ترافقه، بخلاف الآيتين الأوليين اللتين يتمظهر فيهما الحدث الخطابي بصورة رئيسية.

ويمكن القول بتفاعل الخطاب مع الذات تفاعلا جدليا في سلوك المنافق، ليشكل النفاق قضية فكرية مضمرة في النفس أي في (النوايا)، وهي التي عبّر عنها القرآن الكريم بـ(القلوب) و(يكتمون)، فهي المحرك الذي يدفع المنافق إلى أن يكذب في نقل الأحداث، وأن يَعِدَ ثم لا ينفذ...الخ. بمعنى أن ظاهر خطاب المنافق يخالف سلوكه، بهدف الوصول إلى مقاصد مضمرة عن طريق تضليل المتلقي ومخادعته، وهدفه من ذلك (إعادة انتاج) نفسه وسلطته والمحافظة عليها أو زيادتها، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (النساء/١٤١). يقول صاحب الميزان: "التربُّص: الانتظار. والاستحواذ: الغلَبة والتسلّط، وهذا وصف آخر لهؤلاء المنافقين فإنهم إنما حفظوا رابطة الاتصال بالفريقين جميعا: المؤمنين والكافرين، يستدرّون الطائفتين ويستفيدون ممن حسُن حاله منهما"[٨].

وفي الطرف الآخر لخطاب المنافقين يظهر الخطاب الذي يهدف إلى مقاومة سلوك المنافقين ورفضه وحث الناس على تجنّب رفقتهم أو الاقتداء بهم، بل إنه خطاب يدعو المنافقين إلى تغيير ممارساتهم؛ خطابيا وسلوكيا، بالتخلي عن تلك الصفة المذمومة والتحلّي بالخُلق القويم والإيمان. فهو خطاب مقاوم ورافض وداعٍ إلى تغيير التشييدات والنُظُم التي بنى عليها المنافقون سلوكهم، ويتمثل خطاب المقاومة هذا بخطاب القرآن الكريم للعالَمين وللمسلمين خاصة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا۞ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا۞ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء/ الآيات ١٤٤ و١٤٥ و١٤٦).

وهكذا يقف خطابُ القرآن الكريم بوصفه جبهة وخطابا مقاوما لممارسات المنافقين الاجتماعية والخطابية، تلك الممارسات التي تحاول (إعادة إنتاج) هيمنتها؛ إما بمحاولة الحفاظ على تلك الهيمنة، أو زيادتها. ليخلق لنا خطابُ المقاومة أمام خطاب الهيمنة (صراعا اجتماعيا جدليا) بينهما، ما زال مستمرا إلى اليوم.

٢.١.علاقة العموم والخصوص من وجه: وهو مصطلح استعرتُه من الجهاز الاصطلاحي المنطقي للدلالة على المفهوم الثاني للعلاقة الجدلية بين الخطاب بوصفه عنصرا من عناصر العملية الاجتماعية عند فيركلاف[٩] وبين العناصر الاجتماعية الأخرى، إذ يرى فيركلاف أن العناصر الاجتماعية ومن ضمنها الخطاب "مختلفة ولكنها غير منفصلة، أي ليست كلية الانفصال"[١٠]. وتأتي هذه الصورة لتأكيد صلة الخطاب بالبنية الاجتماعية، وأن على تحليل الخطاب عدم تجريد الخطاب من صيرورته الاجتماعية. ولا يمكن فهم الخطاب من دون وضعه في مكانه المناسب بين العناصر الاجتماعية الأخرى، فاللغات جزء من البنى الاجتماعية، والنصوص أحداث اجتماعية[١١]. وعليه لا يمكن فهم خطاب النفاق سابق الذكر بمعزل عن العناصر الاجتماعية الأخرى، بوصف خطابِ النفاقِ ممارسةً اجتماعيةً تربط بين الحدث الاجتماعي (الخطاب) وحدث (السلوك الفعلي)، أمام الخطاب الإسلامي الرافض والمقاوم لممارسات المنافقين. ويؤكد فيركلاف نسبية حضور عنصر الحدث النصي في الأحداث الاجتماعية، فقد تظهر الأحداث النصية في بعض الأحداث الاجتماعية بقوّة، بينما لا تمتلك الأحداث النصية تلك القوة في أحداث اجتماعية أخرى، ويضرب فيركلاف على ذلك مثالين؛ أحدهما الحدث النصي في مباراة كرة القدم، مثال: يطلب اللاعب الكرة، فالحدث النصي هنا غير فاعل بالنسبة لبقية الأحداث الاجتماعية الحاضرة في اللعبة، والمثال الآخر هو: المحاضرة اللسانية التي يحضر فيها الحدث النصي بقوّة، ما يقوله المحاضر وما مكتوب على اللوحة أو على الشاشة أو الأوراق، مع وجود عناصر اجتماعية ترافق الحدث النصي مثل حركة جسد المحاضر إلا أنها لا تمثل حضورا قويا في هذا الحدث الاجتماعي[١٢]. وهو ما يؤكده حديثنا عن الممارسة الخطابية للنفاق؛ فقد يكون أثر الحدث الخطابي واضحا فيها ومؤثرا في صيرورة صفة النفاق في ذات الشخص كما في علامتي النفاق: (إذا حدّث كذب، وإذا اؤتمن خان) مع اختلاف في أسبقية الحدث الاجتماعي على الحدث الخطابي كما مرّ، بينما يظهر أثر الحدث الخطابي في الممارسة الاجتماعية للنفاق في العلامة الثالثة من علامات المنافق: (إذا اؤتمن خان) بصورة جزئية رفقة مجموعة أحداث اجتماعية، إلا أن إيداع الأمانة وخيانتها هي حدث اجتماعي سواء أكانت الأمانة محسوسة كإيداع المؤتمن شيئا ماديا عند المنافق، أو خطابية بأن يودع المؤتمِن للمنافق سرّا يأتمنه عليه فيخونه فيه، فالخيانة سلوك وفعل اجتماعي في كلتا الحالتين.

٣.١. العلاقة بين المفهومين: تربط النظرة الازدواجية لمفهوم العلاقة الجدلية التي استنبطتُها من كلام فيركلاف في دراساته المتفرقة بعلاقة تكاملية، فلا يبدو على المفهومين أي تناقض، وكما يظهر من المفهوم الأول أن صلة الخطاب بالبنى الاجتماعية هي صلة أثر وتأثير متبادلين، بالنظر إلى الخطاب بوصفه عنصرا اجتماعيا يتفاعل مع بقية العناصر، وتظهر في المفهوم الثاني نظرة فيركلاف إلى عناصر العملية الاجتماعية نظرة بنويّة، ليكشف عبرها عن عناصر العملية الاجتماعية ويركز على القيم الخلافية أو السمات المميزة للعناصر باصطلاح مدرسة براغ[١٣]. ويبقى الخطاب –في كلتا النظرتين– جزءا من النظام الاجتماعي، وعنصرا من عناصر الهيكل الاجتماعي، كما سيأتي، وهو في تفاعل مستمر ومتبادل مع العناصر الأخرى. بهذا يتكامل المفهومان بجمع ما هو بنوي بما هو تأثيري.

٢. مكوّنات المنظومة الاجتماعية ومنزلة الخطاب منها:

الخطاب عند فيركلاف جزء من المنظومة الاجتماعية، وهو تجلٍّ من تجليات تلك المنظومة، فالخطاب نظام اجتماعي مثله مثل أي ظاهرة اجتماعية أخرى. فالعلاقة بين الخطاب والمجتمع علاقة داخلية وجدلية وليست خارجية، هو جزء من المجتمع، والظواهر اللغوية ظواهر اجتماعية[١٤].

بناء عليه صارت مكونات الخطاب عند فيركلاف هي نفسها مكونات أي منظومة اجتماعية[١٥]، وقد مرّت نظرة فيركلاف لهذه المكونات بمرحلتين، هما:

١.٢. المرحلة الأولى: وهو ما عبّر عنه في كتابه اللغة والسلطة.

الخطاب بوصفه نظاما –عند فيركلاف– صورة من صور النظم الاجتماعية، ولما كانت النظم الاجتماعية تتكون من ثلاثة عناصر فهذا يعني أن نظم الخطاب لها نفس المكونات؛ وتلك المكونات هي:

النظام الاجتماعي– نظام الخطاب أو أنواع الخطاب

أنماط الممارسة– أنماط الخطاب

الممارسة الفعلية– الخطابات الفعلية[١٦].

والمقصود بنظام الخطاب عند فيركلاف الأحوال الاجتماعية، أو الأعراف التي تنتظم في مجموعات وأشكال أو شبكات[١٧]. ويسميها أيضا البنى الاجتماعية أو الهياكل الاجتماعية، وهي في حالة تفاعل جدلي مع الممارسة الخطابية من حيث التأثر والتأثير[١٨].

أما مصطلح الممارسة الخطابية وعلاقته بالخطاب فينتابه غموضٌ في المفهوم والعلاقة، يصفه فيركلاف بأنه (غموض لائق)، إذ يدل الخطاب مرّة على الفعل ومرة يدل على أحد الأعراف عنده، وسبب كون ذلك الغموض لائقا؛ لأن كل فعل فردي يضمر أعرافا اجتماعية أي وجود شروط مسبقة لفعل لا يمكن تخطيها[١٩]. إلا أن ما يزيد الغموض هو استعمال فيركلاف للممارسة بمعنى أنماط الخطاب، كالمحادثة بين الشرطي والمتهم أو المحادثة بين أفراد الأسرة وغيرهما[٢٠].

ذكرتُ أن العلاقة بين الخطاب والمجتمع هي علاقة جزء بالكل عند فيركلاف، وهي علاقة جدلية يؤثر فيها أحد الطرفين في الآخر، ومن ناحية تأثر النظام الاجتماعي في الخطاب، يرى فيركلاف أن النظم الاجتماعية هي التي تتحكم بنظم الخطاب أو أنواعه وتهيمن عليها. وكذلك تتحكم الممارسة الاجتماعية في أنماط الممارسة الخطابية وأسلوبها، كما في تنوّع المحادثة باختلاف مواقعها في الممارسات الاجتماعية، كالأسرة ومركز الشرطة والقانون والتعليم وغيرها[٢١].

ويرى أيضا أن لكل ممارسة اجتماعية نظاما اجتماعيا فالمدرسة تتكون من ثلاثة عناصر، العنصر الأول: مجموعة حالات، كقاعة اجتماعات وقاعات دراسة ووقت اللعب واجتماع المعلمين وغيرها. والعنصر الثاني: الأدوار الاجتماعية، وتتكون من المدير والمعلمين والتلاميذ، زيادة على الموظفين. ويرى فيركلاف أن الأدوار الاجتماعية تمثل مواقع الذوات في الممارسة الاجتماعية، وهؤلاء الذوات هم ممثلو المجتمع وهم فعالون وخلاقون فيه، فمع كون الذوات مقيَّدة بالأنماط والممارسات الاجتماعية إلا أنها تبقى فعالة وخلاّقة، فهي لا تنفذ أنماط الخطاب بصورة آلية. والعنصر الثالث: الأغراض المتفق عليها، كالتعليم والتعلم والامتحان والحفاظ على السيطرة الاجتماعية[٢٢].

٢.٢. المرحلة الثانية: وهي مرحلة تخطّى فيها فيركلاف عقبات المرحلة الأولى بإعادة تصنيف الممارسات الاجتماعية ورفع الغموض عن ذلك التصنيف.

للعملية الاجتماعية عناصر ثلاثة مكوّنة لها، تتفاعل تلك العناصر لتكوّن عملية اجتماعية متكاملة[٢٣]، ولكل عنصر مجموعة تمثيلات، ومجموعة عناصر تكوّنه، ليصبح ذلك العنصر شبكة مترامية الأطراف. ويمكن تمثيل تلك العناصر بالمخطط الآتي:

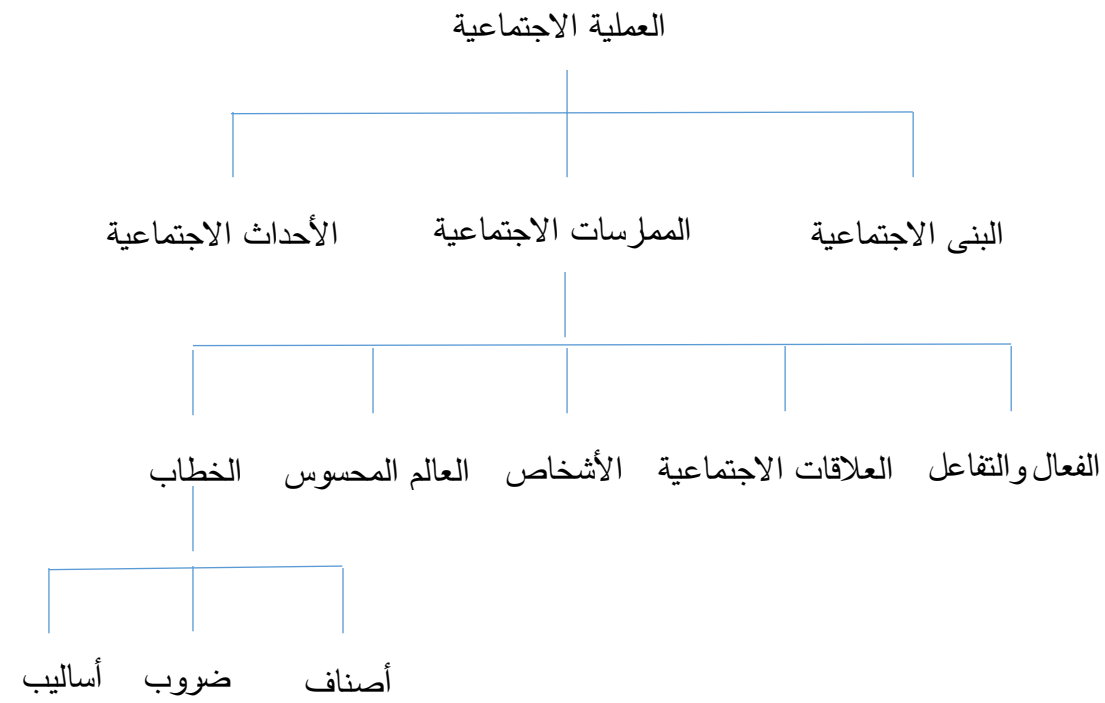

تتألف العملية الاجتماعية برمتها عند فيركلاف من ثلاثة عناصر غير قابلة للتفكيك، هي: (البنى الاجتماعية) المجرّدة، و(الممارسات الاجتماعية) الأقل تجريدا، و(الأحداث الاجتماعية) المحسوسة[٢٤].

١.٢.٢. البنى الاجتماعية: هي كيانات في غاية التجريد، كالبنية الاقتصادية، أو طبقة اجتماعية، أو اللغة. وهي التي تُحدِث الأحداث الاجتماعية بواسطة الممارسة الاجتماعية[٢٥]، كما سيأتي.

وتصوّر فيركلاف للبنى الاجتماعية هو نفسه في المرحلة الأولى، فهي تعني عنده "الأحوال الاجتماعية، ويمكن تحديدها بالتمييز بين الأحوال الاجتماعية للإنتاج وبين الأحوال الاجتماعية للتفسير. ويضاف إلى ذلك أن هذه الأحوال الاجتماعية يمكن أن تعزى إلى ثلاثة مستويات مختلفة من التنظيم الاجتماعي، أولها مستوى الحالة الاجتماعية، أو البيئة الاجتماعية المباشرة التي يقع فيها الخطاب، وثانيها هو مستوى المؤسسة الاجتماعية التي تشكل الإطار الأوسع للخطاب، وثالثها مستوى المجتمع كله"[٢٦]. إذ تتضمن الأحوال الاجتماعية عنده صنفين: أحدهما: أحوال اجتماعية مباشرة تتعلق بسياق الحال (أحوال عمليتي الإنتاج والتفسير)، والآخر: أحوال بعيدة تتعلق بالهياكل الاجتماعية والمؤسسية[٢٧].

ويرتبط البناء الاجتماعي بالممارسة الاجتماعية (الخطابية) بعلاقة جدلية؛ فالبناء الاجتماعي شرط لقيام الممارسات الاجتماعية، وهو أي البناء الاجتماعي نتيجة من نتائج الممارسات الاجتماعية[٢٨].

٢.٢.٢. الممارسة الاجتماعية: تتخذ الممارسة الاجتماعية وظيفة الرابط بين البنى الاجتماعية والأحداث الاجتماعية، كممارسات التعليم، وممارسات الإدارة في المؤسسات التربوية. وينظر فيركلاف إلى الممارسة الاجتماعية على أنها (تعبير لفظي) عن الخطاب وبمعنى أوسع عن اللغة، وهي تعبير لفظي: (عن الفعال والتفاعل، وعن العلاقات الاجتماعية، وعن الأشخاص؛ بمعتقداتهم ومواقفهم، وتواريخهم وغير ذلك، وعن العالم المحسوس، وعن الخطاب)[٢٩]. وعلى هذا يمكن النظر إلى الخطاب بوصفه شكلا من أشكال الممارسات الاجتماعية، كالممارسة الاقتصادية، والممارسة السياسية والأيديولجية[٣٠]. لذلك يقترح فيركلاف استعمال الخطاب بوصفه "استخدام اللغة شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعية، لا مجرّد نشاط فريد محض أو رد فعل للمتغيرات الموقفية"[٣١]. ولا يقتصر الخطاب على تمثيل العالم بل يتجاوزه إلى أن يكوّن الخطاب العالم ويبنيه[٣٢].

من هنا أصبحت الممارسة الخطابية محور دراسة تحليل الخطاب عند فيركلاف؛ لكونها شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعية، ولأنها ترتبط بالبنية الاجتماعية بعلاقة جدلية من حيث التأثر والتأثير، فاللغة جزء من الحياة الاجتماعية، ولا

ينبغي النظر إليها بالاكتفاء على أنها تختزل الحياة الاجتماعية، بل النظر إليها على أنها ترتبط بها بعلاقة منطقية جدلية[٣٣]. لهذا رأى أن لتحليل الخطاب في أثناء تحليل الحدث الخطابي (النص) ثلاثةَ أبعاد، بوصفه قطعة نصيّة (التحليل اللغوي للنص)، وبوصفه ممارسة خطابية، كالتفاعل في صورة الخطاب بوصفه نصا وتفاعلا، وبوصفه ممارسة اجتماعية، كالظروف المؤسسية والتنظيمية للحادثة الخطابية وتأثيرها في تشكيل الممارسة الخطابية[٣٤].

٣.٢.٢. الأحداث الاجتماعية: وهي الجانب المحسوس من العملية الاجتماعية أو ما يحدث فعلا، وتُعدّ النصوص، منطوقة أو مقروءة، أجزاء من الأحداث الاجتماعية، وتمتلك بعض الأحداث طابعا نصيّا قويا في حين يختفي تجلي النص في بعض الأحداث الاجتماعية. فالحدث الاجتماعي ومن ضمنه النص يرتبط بـ(الإنتاج)؛ وهناك أمران يسهمان في إنتاج النصوص وبلورتها هما: البناء الاجتماعي والممارسة الاجتماعية من جهة، والأشخاص الفاعلون المشاركون في الحدث الاجتماعي من جهة أخرى[٣٥]. بمعنى أن عملية إنتاج النصوص بوصفها أحداثا اجتماعية لا تكتفي بالممارسة اللسانية بل تتجاوزها إلى البنى الاجتماعية والممارسات اللسانية وأحوال منتجي الخطاب[٣٦].

٤.٢.٢. الممارسة الخطابية بوصفها شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعية:

يُعد الخطاب –كما مر– مظهرا لفظيا لأية ممارسة اجتماعية، وتتكون الممارسة الخطابية عند فيركلاف من ثلاثة مكونات، ترتبط في ما بينها بعلاقات جدلية تفاعلية، وتلك المكونات هي: (الأصناف، والضروب، والأساليب)[٣٧].

١.٤.٢.٢. الأصناف (طُرُق فِعل): تتمثل بالنصوص (التكلّم أو الكتابة)، وهي طرق مختلفة في الفعل والتفاعل[٣٨]، بوصفها حدثا تواصليا، أو فعلا (action)، وهي طريقة لسانية ينصهر فيها الفعل والتفاعل، من أمثلتها؛ بنية المقابلة، وبنية المحاضرة وبنية التقرير الإخباري، وغيرها، فهي البناء العام للنصوص: (العنوان، المقدمة التفاصيل)[٣٩]. وتختلف الأصناف في ما بينها من حيث الثبات والتغير، فمنها ما هو ثابت ثبوتا راسخا، كصنف كتابة البحوث، ومنها ما هو متغير ومتقلب جدا كصنف الإعلانات.

ويقسّم فيركلاف الأصناف إلى ثلاثة أقسام هي: (ممهدات، ومُعْتَقة، وقائمة).

تتمثل الممهدات بالأقسام الكبرى لكل صنف وتنضم فيها شبكة من الأصناف كالسرد والمحاجّة والوصف، وهي أصناف على مستوى عالٍ من التجريد، فللسرد عدة أصناف أو أنماط.

والمقصود بالصنف المُعْتَق هو أن يتخطى الصنف الممارسات الاجتماعية الخاصة، وإعتاقه ليكون تقنية اجتماعية تشمل نطاقا واسعا من شبكات الممارسات الاجتماعية.

ويعني الصنفُ القائمُ تخصيص الصنف بممارسة اجتماعية خاصة كالمقابلة التلفزيونية لأحد المشاهير[٤٠].

٢.٤.٢.٢. الضروب (طُرق تمثيل): والتمثيل هنا طريقة تجريدية للعالم المحسوس بأن تُضمّ ضروبٌ معينة من الخطاب تمثّل العالم نفسه بطرق مختلفة[٤١]. وينبغي رصد الاختلافات بين الخطابات التي تنتمي إلى ضروب متشابهة فاستعمال الألفاظ يختلف من خطاب إلى آخر وللكشف عن الفوارق في الاستعمال ينبغي النظر في العلاقات الدلالية في كل ضرب من ضروب الخطاب ويمثّل فيركلاف على ذلك بمصطلح (العولمة) الذي يُستعمل في خطاب الليبرالية الجديدة، ويستعمل أيضا في خطاب (مناهضة العولمة)، لكن كلا منهما يستعمله بطريقة مختلفة[٤٢]. ويمكن التمثيل على ذلك باستعمال مصطلح (الإرهاب) الذي يتفاوت استعماله بين خطاب القوى المناهضة للإرهاب التي تتبنى المدلول السلبي القائم على التطرف والقتل وغيرهما، وبين استعمال القوى التي تحمل شعار مناهضة القوى الاستكبارية نفسها، التي تتبنى المدلول الإيجابي للمفردة من المنطلق القرآني ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال/ ٦٠). وتختلف ضروب الخطاب في الاستعارات أيضا كاستعمال الشركات المتقاعسة في الخطاب الرأسمالي والتجاري، في حين يستعمل لفظ التقاعس في قاعات التدريس (قاعات تدريس متقاعسة) بدلالة مختلفة[٤٣].

٣.٤.٢.٢. الأساليب (طُرُق كينونة): في بُعْدها السيميائي العلاماتي هي هويات أو أساليب كينونة[٤٤]. وتتجلى بالسلوك الجسدي المصاحب للخطاب، فالأساليب تكوّن الهويات الاجتماعية والشخصيات. كأسلوب المدير في عمله، وطريقته في استعمال اللغة بوصفها مصدرا للتعريف بالذات[٤٥].

٥.٢.٢. مرجعيات تصنيف فيركلاف لمعاني عناصر الخطاب:

نهلت مقاربات التحليل النقدي للخطاب والتحليل النقدي الاجتماعي عموما، وعند فيركلاف على وجه الخصوص، من مقاربات عديدة بحيث أصبحت ميدانا عَبر التخصصي كالتحليل الاجتماعي والسياسي والنفسي والفلسفي[٤٦]. وبهذا يكون تحليل الخطاب "ليس مجرد مستوى من مستويات التحليل اللغوي؛ بل هو بالأحرى شكل من أشكال الدراسة الاجتماعية يتحرك في مناطق تلاقي علم اللغة والفلسفة والبلاغة وعلم النفس المعرفي وأثنوجرافيا التواصل وغيرها من العلوم"[٤٧].

ومن بين تلك المرجعيات التي أفادت منها المقاربة الجدلية العلائقية هي اللسانية الوظيفية لمايكل هاليداي، والمقاربة الأركولوجية لميشيل فوكو.

يوازن فيركلاف بين تصنيفه الثلاثي لمعاني لخطاب: (طرق فعل وطرق تمثيل، وطرق هوية) وبين تصنيف هاليداي وتصنيف فوكو لوظائف الخطاب، كما يأتي:

١.٥.٢.٢. بين هاليداي وفيركلاف:

يذهب هاليداي في مقاربته اللسانية الوظيفية إلى عدِّ (الوظيفة) جزءا أساسيا في اللغة، وهي بنية أساسية فيها وأساس من أسس تكوينها؛ فالوظيفية ليست مجرد استعمال للغة بل هي خاصية جوهرية فيها[٤٨].

يقترح هاليداي في نموذجه ١٩٧٠ ثلاث وظائف للغة هي: (الوظيفة الفكرية، والوظيفة النصية، والوظيفة التبادلية)، وتكوّن هذه الوظائف النظام الدلالي للغة[٤٩].

أما المكوِّن الفكري فهو تمثيل لعالم المتكلم الخارجي أو الداخلي الذي في نفسه، وهو يتكون من مكونين، أحدهما: المكون التجريبي، والآخر: المكوّن المنطقي. وتقوم الوظيفة التبادلية على تأسيس العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، وعبرها يكون التأثير في سلوك الآخرين، وبها يعبر المتكلم عن موقفه رفضا أو قبولا أو ترجيحا أو غيرها. وتتكفّل الوظيفة النصية بتحقيق الوظيفتين السابقتين، فهي وظيفة حسيّة تتجلى بالنص من حيث تماسكه وترابطه[٥٠].

تقابل أشكال الخطاب عند هاليداي بحسب فيركلاف ما يأتي:

- الوظيفة الفكرية: العالم العقلي.. طرق التمثيل (الضروب عند فيركلاف)
- الوظيفة التبادلية: العالم الاجتماعي. وتشمل عند فيركلاف (طرق الفعل) المتمثلة بالأصناف) و(طرق الكينونة) و(تحديد الهوية) المتمثلة بـ(الأساليب).
- الوظيفة النصية: العالم المحسوس (طرق الفعل) (البنية النصية) عند فيركلاف[٥١].

ويفضّل فيركلاف الحديث عن المعاني محل الوظائف ويقسم أنماط المعنى النصي الرئيسة إلى: (الفعال، والتمثيل، وتحديد الهوية)[٥٢].

٢.٥.٢.٢. العلاقة المنطقية لمعاني عناصر الخطاب بين فوكو وفيركلاف:

للخطاب عند فوكو ثلاثة عناصر تشكّله هي: (السلطة والمعرفة والحقيقة). تلك العناصر هي التي تجعل للخطاب معنى[٥٣]. ويعبّر فيركلاف عن العناصر المشكلة للخطاب عند فوكو بـ(محور المعرفة، ومحور السلطة، ومحور الأخلاق)، فهي تمثل "علاقات السيطرة على الأشياء، علاقات الفعل باتجاه الآخرين، العلاقات مع الذات"، وترتبط تلك العناصر عند فوكو بعلاقة منطقية فهي ليست منفصلة ولا غريبة فالسيطرة على الأشياء تمرّ عبر العلاقة مع الآخرين، والعلاقات مع الآخرين تستلزم علاقات مع الذات، وبالعكس[٥٤].

- تُقابل (طرق التمثيل عند فيركلاف) (المعرفة عند فوكو). وتُقابِل أيضا (السلطة عند فوكو) أو (السيطرة على الأشياء).
- تُقابل (الفعال عند فيركلاف) (العلاقات مع الآخرين عند فوكو). وتُقابِل أيضا (الفعل مع الآخرين والسلطة عند فوكو).
- (تحديد الهوية عند فيركلاف) يُقابِل عند فوكو (العلاقات مع الذات) و(الأخلاق)، و(الذات الأخلاقية)[٥٥].

إن الفصل بين هذه العناصر لأغراض تحليلية، وإلا فهي مرتبطة ارتباطا منطقيا جدليا بتعبير فيركلاف، فكل عنصر يتضمن العناصر الأخرى[٥٦]، خلاف فوكو الذي لم يستعمل مصطلح الجدل في ذلك.

٣. التسليع Commodification:

١.٣. مفهوم التسليع:

يرتبط التسليع بالرأسمالية بتحويل ما هو غير قابل للبيع إلى سلعة؛ كالناس والمعاني والثقافة، ضمن ما يسمّى بصناعة الثقافة خدمة لمصالح الرأسمالية، ويمثل التسليع بحسب كارل ماركس علاقة استغلالية على مستوى الإنتاج. وبحسب هابرماس، حوّل التسليعُ الناسَ من مواطنين عقلانيين إلى مستهلكين غير عقلانيين؛ لأنه جعل الناس مجرّد سلعة[٥٧]. فبينما تدعي (صناعة الثقافة) أن التسليع قائم على أسس الديمقراطية والاستقلال والتنوّع –بحسب النظرية النقدية التي صاغتها مدرسة فرانكفورت– إلا أنه في واقع الأمر ذو نظرة فاشستيّة وغير مستقرة[٥٨].

بهذا يُجرّد التسليع القيَم الحقيقية للمعاني والخطاب المتمثلة بوظائف الخطاب التربوية وتحسين العلاقات الاجتماعية، ليتحوّل الخطاب إلى سلعة تخضع –كباقي السلع– إلى عملية الإنتاج والتوزيع والاستهلاك[٥٩]، وغايته الربح وتجنّب الخسارة، والسعي إلى استقطاب المستهلكين بأية طريقة كانت، مجّردا من قيمه الحقيقية، إذ يحمل التسليعُ معانيَ أيديولوجية مُضمَّنة تخدم مصالح الرأسمالية[٦٠].

ويحدد ماركس قيمتين للسلع، هما: استعمالية وتداولية، وبحسب التسليع؛ يرى بودريار أن القيمة العلاميّة حلّت محلّ القيمتين الاستعمالية والتداولية في الثقافة المعاصرة، إذ تحدد قيمة السلعة بمعانيها الرمزية وليس المنفعة[٦١].

٢.٣. تسليع الممارسة الخطابية:

يذهب فيركلاف إلى أن الممارسة الخطابية تتمظهر في الممارسات الاجتماعية المختلفة –كما مرّ– وعلى الرغم من اهتمامه بالخطاب بوصفه ممارسة سياسية إلا أنه أعطى للخطاب (المُهيمِن) صورةً اقتصادية، وتلك الصورة عامة لكل الممارسات الاجتماعية والمؤسسية التي يتشكّل فيها الخطاب[٦٢].

ومن رصد مؤلفات فيركلاف وجدنا أن تصوره لتسليع الهيمنة للخطاب قد مرّ بمرحلتين، كما يأتي:

١.٢.٣. المرحلة الأولى: ينظر فيركلاف في كتابه اللغة والسلطة إلى الخطاب (المُهيمِن) بوصفه (عملية اجتماعية)، تضمّ: (عمليتي إنتاج النص وعملية تفسيره). فالخطاب عملية، والنصّ منتج لا عملية، بمعنى أن النص منتج لعملية الخطاب، وهو جزء منها، ومن هنا كان تحليل النص أو (تحليل الخصائص الشكلية للنص) جزءا من تحليل الخطاب عنده، ويشمل الجزء الثاني تفسير النص الذي يجعل من النص موردا من موارده. والملاحظ على عمليتي الإنتاج والتفسير أنهما في حالة تفاعل بين خصائص النص وموارد الأعضاء؛ إذ تحتاج عمليتا الإنتاج والتفسير إلى موارد، ويسمي فيركلاف الموارد الاجتماعية بالأحوال الاجتماعية أو بالسياقات. وموارد الأعضاء أو (الأحوال)، هي موارد معرفية قد يكون من ضمنها معرفتهم باللغة أو معارف غير لغوية (اجتماعية). والموارد المعرفية موجود في رؤوس أفراد المجتمع ولها أصول اجتماعية، ويقوم أفراد المجتمع باستيعاب تلك الموارد وتمثلها واستعمالها في الممارسات الاجتماعية ومن بينها إنتاج الخطاب وتفسيره. من هنا تشمل عملية الخطاب: (إنتاج النص) و(تفسيره) و(التفاعل بينهما)، و(الموارد أو الأحوال أو السياقات)[٦٣].

لذا تقتضي عملية تحليل الخطاب ثلاث خطوات؛ **أولاها الوصف:** وصف الخصائص الشكلية للنص، **وثانيها التفسير**، وهو العلاقة بين النص والتفاعل أي النظر إلى النص بوصفه عملية إنتاج وموردا من موارد التفسير. **وثالثها الشرح**؛ التحكم الاجتماعي في عمليتي الإنتاج والتفسير وآثارهما الاجتماعية(٦٤).

٢.٢.٣. المرحلة الثانية: تكتسي لغة فيركلاف في وصف تسليع الممارسة الخطابية للهيمنة بوصفها ممارسة اجتماعية في دراساته المتأخرة بصبغة اقتصادية صِرفة.

إذ رأى أن النظام الخطابي لمجتمع ما قد يأخذ صورة (السوق)، من حيث إنتاج النصوص وتوزيعها واستهلاكها(٦٥)، وبذلك ينغمس الخطاب في الهيأة التسليعية.

٢.٢.٣. مفهوم التسليع وغاياته:

يأتي تصوّر فيركلاف لمصطلح لتسليع ضمن التصوّر العام السلبي للمصطلح، إذ يعني التسليع عنده "أن بعض المجالات والمؤسسات الاجتماعية التي لا تعمل بإنتاج سلع بالمعنى الاقتصادي الضيق للبضائع المعدة للبيع. تخضع برغم ذلك لتنظيمها وتصويرها في إطار إنتاج السلع وتوزيعها واستهلاكها. ولم يعد من المستغرب على سبيل المثال أن نسمع أن بعض القطاعات الفنية والتعليمية، مثل المسرح وتعليم اللغة الإنكليزية يشار إليها باسم (الصناعات) التي تعمل بإنتاج وتسويق وبيع سلع ثقافية أو تعليمية إلى عملائها أو مستهلكيها. وليس التسليع عملية جديدة بالمعنى المفهوم. ولكنها اكتسبت أخيرا قوة وكثافة جديدتين باعتبارهما جانبا من جوانب (ثقافة المبادرة) (والهمة التجارية)"(٦٦).

ويدخل ذلك ضمن التغيير الجذري المستمر للرأسمالية نحو رأسمالية جديدة لتخطي الأزمات، ليتاح لها الاستمرار في التوسع الاقتصادي، بإعادة بناء العلاقات بين الممارسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بإدخال مفهوم التسويق والسلعة ليهيمن منطق السوق الاقتصادي على باقي الممارسات الاجتماعية وخضوعها لمنطق العولمة الجديد كالتربية مثلا. مما يؤدي إلى إعادة بناء العلاقات الاجتماعية، بحيث أنتجت (الليبراليةُ الجديدةُ) (إمبرياليةً جديدةً) زادت في الفروق بين الأغنياء والفقراء وإضعاف الأمان الاقتصادي واستغلال العمال وزيادة مخاطر البيئة وتوزيع الثروة غير المتوازن(٦٧).

يظهر أن تسليع الممارسات الخطابية هو "استعمار لنظم الخطاب المؤسسية، وللنظام المجتمعي للخطاب بصفة أعم من جانب أنماط خطابية مرتبطة بإنتاج السلع"(٦٨).

٢.٢.٣. بنية العملية الخطابية في ضوء تسليع الخطاب:

من هنا يتخلى فيركلاف عن وصف العملية الخطابية بعنصريها (إنتاج النص وتفسيره) والموارد التي يحتاجانها إلى وصف العملية الخطابية بأنها عملية تتكون من عناصر ثلاثة هي: (إنتاج النص) و(توزيع النص) و(استهلاك النص).

وهذه العناصر تحتاج إلى عنصر رابع يتماهى فيها وهو (الموارد الاجتماعية) التي يصفها بـ(موارد الأعضاء)، فمن دون الموارد يستحيل إنتاج النص أو استهلاكه (تفسيره). والموارد هي جماع خبرات المشاركين في الخطاب التي اكتسبوها بطريقة لا واعية. ومن بين تلك الموارد نظم الخطاب والتناص(٦٩).

وتتميز العناصر الثلاثة (الإنتاج والتوزيع والاستهلاك) بأنها ذات طبيعة مرنة ومختلفة تبعا لاختلاف السياقات الاجتماعية لإنتاج النصوص طرائق مختلفة.

١.٢.٢.٣. مرونة إنتاجية النص: قد يكون إنتاج النص إنتاجا مفردا أو مركبا جماعيا، كما في إنشاء المقال الجماعي، فهناك من يجمع التقارير، وهناك من يحوّل هذه المصادر إلى نصوص مسوَّدة، ومنهم من يقرر مكان إدراج المقال في الصحيفة، ثم يأتي تحرير المقال بصورة نهائية. ويمكن النظر إلى أن التفاوت في إنتاج النص بمراعاة مواقع إنتاجه كالرئيس أو المسؤولين ومحرر النص الذي يصوغ جماع الآراء في تقرير موحّد يعبر عن الجميع ويحمل اسم المؤسسة(٧٠).

٢.٢.٢.٣. مرونة استهلاك النص: يختلف استهلاك النصوص أيضا باختلاف السياقات الاجتماعية.

وتختلف سياقات استهلاك النص أو تفسيره بحسب أمور عديدة، يمكن إيجازها بما يأتي:

أولا: تختلف بحسب الجهد التفسيري المبذول في فهم النص، كالقراءة العابرة للنص أو القراءة الفاحصة الدقيقة.

ثانيا: تختلف بحسب طرائق التفسير المتاحة والمختلفة؛ فنص المحاضرة لا يقرأ بوصفه نصا أدبيا، فوصفات العلاج والطهو لا تقرأ بوصفها نصوصا علمية أو أدبية.

ثالثا: بحسب الجمهور الذي يستهلك النصوص؛ فقد يكون الاستهلاك فرديا كما في الرسائل الشخصية أو الغرامية، وقد يكون جماعيا كما في خطابات المؤسسة الاجتماعية كخطاب رئيس المؤسسة، وقد يكون خطابا دوليا كما في خطابات المنظمات الدولية والقمم الدولية.

رابعا: بحسب أهمية النص أو فائدته؛ فبعض النصوص تمر على المستهليكين بطريقة عابرة كالمحادثات العابرة التي سرعان ما تنسى، وبعضها تسجل وتوثّق كما في النتاجات الأدبية، وبعضها يعاد إنتاجها لتصير إلى نصوص أخرى كالخطابات السياسية والكتب التعليمية.

خامسا: بحسب آثار النصوص التي تخلّفها؛ فبعض النصوص تؤدي إلى الحروب، وبعضها إلى الطرد من الوظيفة، وبعضها يغيّر من مواقف الناس ومعتقداتهم(٧١). ومن أمثلة ذلك قول نصر بن سيّار الكناني(٧٢):

فإن النار بالعودين تذكى وإنّ الشرّ مَبدؤه كلامُ

وفي رواية: وإن الحرب أوّلها الكلامُ(٧٣).

سادسا: بحسب ميول المستهلكين وانتماءاتهم: يمكن أن يُزاد على ذلك بُعدٌ جديدٌ، وهو أثر ميولات المستهليكين وانتماءاتهم في استهلاك النصوص وتفسيرها، فقد تتلقى جهات المعارضة خطاب الخصوم بطريقة مؤدلجة تفسر النص بما ينفع خطاب المعارضة وبما يضر الخصوم. بخلاف تلقي المستهلكين الموالين للخطاب الذي يفسّر النص بما يلائم ميولهم وميول الجهات التي ينتمون إليها. وهو أمر شخّصه في ما بعد عماد عبد اللطيف في (استجابات الجمهور) أو (بلاغة الجمهور)، كما سيأتي.

٣.٢.٢.٣. مرونة توزيع النص:

يتصف التوزيع بأنه ذو طابع تصديري، فلمنشئ الخطاب طرق وأدوات لتصدير الخطاب لمستهلكيه، وأن لمنشئ الخطاب فضاء من المستهلكين يروم توزيع الخطاب عليهم، وهذا الفضاء التوزيعي هو فضاء مرن ونسبي كما يرى فيركلاف؛ فقد يكون توزيعا بسيطا كما في المحادثة العارضة التي لا تنتمي إلا إلى سياقها المباشر، وقد يكون توزيعا مركبا فخطاب رؤساء الدول وخطابات التفاوض الدولي توزّع على نطاق واسع من المجالات المؤسسية(٧٤).

٣.٢.٣. أبعاد الخطاب في ضوء عناصر تسليعه:

يقترح فيركلاف بناء على النظرة التسليعية للخطاب وتحليل الخطاب ثلاثة أبعاد للخطاب، هي:

- قطعة نصية: ويتمثل في المكونات اللغوية للنص، كالمفردات والتركيب وسبك النص وبنيته.
- الممارسة الخطابية: إنتاج الخطاب وتوزيعه واستهلاكه، أي بكون الخطاب نصا وتفاعلا، من حيث احتوائه على الأفعال الكلامية والتناص والحبك وربط النص بسياقه.
- الممارسة الاجتماعية: موارد الأعضاء ومعالجة القضايا الاجتماعية كالظروف المؤسسية والتنظيمية للحادثة الخطابية وآثار تشكيل الخطاب كالتأثيرات الأيديولجية وعمليات الهيمنة(٧٥).

يأتي اهتمام فيركلاف بالنظر إلى عناصر الخطاب هذه لغرض رصد سيرورة (صناعة المعنى)، التي تتولد عنده بتفاعل العناصر الثلاثة (النص نفسه وإنتاجه وتفسيره) والعلاقات بين العناصر كموقع المنتجين وقيمهم ونواياهم ومواقع المستهلكين ومعرفتهم أهدافهم. ولا تقتصر (صناعة المعنى) على البيّن في النص بل إلى المستتر، فاهتمامه إذن بـ(سيرورة صناعة المعنى) التي يصفها بأنها عملية دينامية. ولهذا يركز فيركلاف على إنتاج النصوص أكثر من اهتمامه على تلقي النصوص وتفسيرها(٧٦).

ويأتي تصوّر فيركلاف لـ(صناعة المعنى) ضمن التصوّر السلبي للتسليع وصناعة الثقافة المشار إليها في (١.٣). بتحويل الخطاب إلى (صناعة) بوصفه (منتَجا) ليتجرد بذلك من قيمه التربوية والأخلاقية والاجتماعية.

ويرصد الدكتور عماد عبد اللطيف بعدا رابعا غائبا في تقسيم فيركلاف اسماه بـ(استجابات الجمهور، حيث يرى عماد عبد اللطيف أن فيركلاف على الرغم من التفاته إلى (استهلاك الخطاب) إلا أنه لم يتجاوز طرق (إنتاج المعنى) دون طرق الاستجابة للخطاب، من هنا يزيد عماد عبد اللطيف على مقترح فيركلاف البحثَ في العلاقة بين الظواهر اللغوية للخطاب والاستجابات الفعلية لمستهلكي الخطاب وعلاقة السلطة بتلك الاستجابات وأساليب التلاعب بها. وعدّ استجابات الجمهور المدخل الحقيقي للكشف عن علاقة السلطة بالخطاب. فسلطة الخطاب تتجلى في آثارها التي تحدثها في استجابة الجمهور[٧٧].

ومع ما في رأي عماد عبد اللطيف من وجاهة في تشخيص اهتمام فيركلاف بـ(صناعة المعنى) أو (عملية إنتاجه)، ففي انتقاده نظر، من حيث إن نظرة فيركلاف إلى (صناعة المعنى) محصورة بالنظر إلى تحليل عناصر الخطاب بوصفه ممارسة خطابية من دون مراعاة علاقتها بالممارسات الاجتماعية، أما من حيث علاقة الخطاب بالممارسة الاجتماعية وآثارها فيها فنجدها بارزة عند فيركلاف في دراساته كلها، وأنه لم يهمل استجابات الجمهور (طبيعة الاستهلاك) إهمالا تاما، كما سيأتي بيانه. وتكفي الإشارة هنا إلى تقسيمه مرونة الاستهلاك بحسب ضوابط سبق الحديث عنها في (٢.٢.٢.٣) دليلا على عدم إهماله التام لتلك الاستجابات.

٤. أثر الخطاب في التشييدات الاجتماعية:

١.٤. سببية أثر الخطاب في الممارسات الاجتماعية

تنبني العلاقة الجدلية بين الممارسة الخطابية والتغيرات الاجتماعية على العلاقة التفاعلية من حيث الأثر والتأثير المتبادل بين الطرفين، كما أشرنا في (١.١)، ويهمّني هنا تأكيد تأثير الممارسة الخطابية في تشييد الممارسات الاجتماعية بمختلف صنوفها، إذ يشير فيركلاف إلى اشتراك الخطاب في تكوين الأحداث الاجتماعية، ففي النصوص أسباب لها نتائج تعيد بناء الحدث الاجتماعي وتؤثر في الناس؛ في معتقداتهم ومواقفهم وأفعالهم وعلاقاتهم الاجتماعية. غير أن تلك السببية عنده غير منتَظمة ولا تخضع لعلاقة منطقية تربط السبب بالنتيجة، لوجود عوامل أخرى في السياق تحدد أسباب النتائج بل قد يكون للنص نتائج متنوعة بحسب تغير المفسرين[٧٨].

ويدفعنا الحديث عن السببية إلى طرح تساؤل عن ماهية تلك الأسباب التي تنتج بناء الحدث الاجتماعي وتغيّر في مواقف المستهلكين؟ والإجابة عليها بما يأتي:

١.١.٤. سلطة منتِج الخطاب: تعود أولى تلك الأسباب –التي يمكن رصدها– إلى هيمنة مُنتِج النص سواء أكان فردا أم مجموعة أفراد أم مؤسسة بأكملها. وقد يحاول من لا يملك السلطة الظفر بها. لذلك تتسم السلطة بثلاثة خصائص هي:
إنها مكتسبة، وإنها ممارسة تحصل بعد الاكتساب، وإنها متغيرة من حيث إن أصحابها يحاولون الحفاظ عليها وتأكيد سلطتهم باستمرار أو قد يفقدونها نتيجة الصراع الاجتماعي[٧٩].

٢.١.٤. قوّة الخطاب: (مضمونه) تماسكه وانسجامه والأفعال الكلامية والاستعارات والتناص الذي يمثل الطابع التاريخي للنصوص[٨٠].

٣.١.٤. اتساع أفق تسويق النص: فكلما كان فضاء تسويق النص واسعا كلما كان أكثر نجاعة في إعادة الإنتاج بالحفاظ على السلطة أو زيادة تمكينها. وقد مر الحديث عن ذلك في مرونة تسويق النص.

٤.١.٤. ملاءمة الخطاب لسياق الحال: وهو عامل مهم من عوامل إنجاح تأثير الخطاب في الأحداث الاجتماعية، كملاءمة خطاب الدعوة إلى تغيير النظام الاقتصادي أو السياسي لمتطلبات المجتمع وضرورات المرحلة أو العصر، إذ كلما كان الخطاب منسجما مع ظروف المقام وأحوال إنتاجه كلما كان التأثير والتغيير أكثر تجليا في الأحداث الاجتماعية.

٥.١.٤. ميولات المتلقي وانتماءاته: لنسبة طاعة المستهلك لمنتِج النص ودرجة انتمائه له أثر في إنجاح التغيير الاجتماعي. فكلما كان الولاء كبيرا لمنتج النص كلما كان التغيير إيجابيا، والعكس صحيح.

٢.٤. مواطن تأثير الخطاب في التشييدات الاجتماعية:

وينحصر تأثير الخطاب في البناء الاجتماعي عند فيركلاف بثلاثة أمور؛

- فهو يسهم أولا في إعادة بناء الهويات الاجتماعية ومواقع الذوات.
- وهو يساعد، ثانيا، في بناء العلاقات الاجتماعية بين الناس.
- وله، ثالثا، تأثير في بناء نظم المعرفة والعقيدة، أي بالأسلوب الذي تدل به النصوص على العالم وما يجري فيه(٨١).

وهذه الوظائف تتفق مع ما أسماه بـ: وظيفة (الهوية) ووظيفة (العلاقة) ووظيفة (الفكر).

٣.٤. الصراع الاجتماعي للخطاب: يرفض فيركلاف النظر إلى أثر الممارسة الخطابية في التشييدات الاجتماعية نظرةً أحادية الجانب من القمة إلى القاعدة، بحسب تعبيره، فهو يرفض هيمنة الخطاب –بوصفه سلطة– على المستهلكين والمؤسسات الاجتماعية، وعدم النظر إلى المستهلكين والمؤسسات الاجتماعية بوصفهم متلقين خانعين لهيمنة الخطاب. فهو يضع اعتبارا لردود الأفعال المحتملة من المستهلكين أو المؤسسات الاجتماعية التي قد تؤيد التغيير أو ترفضه، أو تحاربه(٨٢). ويصف أسلوب الرفض الذي يجابه نمطية الممارسة الخطابية بـ(الصراع الاجتماعي للخطاب)(٨٣)، ويندرج هذا في مفهوم (المقاومة) التي تنتج عن السلطة والهيمنة فهي في تحدّ للنظام المهيمن وتدخل معه في علاقة تفاوض، وهي ليست فعلا فرديا أو كونيا بل تتشكل بحسب الأزمنة والأمكنة والعلاقات الاجتماعية، فهي ناتج طبيعة علائقية وظرفية(٨٤). لذلك يصف كريس باركر (الهيمنة) بأنها غير مستقرة؛ فعلى الرغم من كون الهيمنة استراتيجية ذات نظرة كونية تحافظ على قوة الفئات الاجتماعية المسيطرة إلا أنها تسوية مؤقتة غير مستقرة، فالثقافة ساحة للصراع والنضال على المعنى(٨٥).

ويستشهد فيركلاف على الصراع الاجتماعي للخطاب بمحاورة التحقيق بين الشرطي والشاهد؛ فإنّ انصياع الشاهد لسلطة الخطاب الممثلة بالشرطيّ هو تأكيد على العلاقات الاجتماعية ومحافظة عليها، أما إذا قاوم الشاهد أو طعن في الأعراف السائدة فمن الممكن أن يسهم خطابه في تغيير العلاقات الاجتماعية، من هنا تتسم الممارسة الاجتماعية ومن ضمنها الممارسة الخطابية بالتنوّع والصراع، وأن من يملك سلطة الخطاب يفرض التجانس والتوحيد المعياري فرضا(٨٦).

وبهذا يكون بُعدُ (استجابة الجمهور) الذي اقترحه عماد عبد اللطيف على تقسيم فيركلاف الثلاثي، حاضرا في تحليل فيركلاف الجدلي للخطاب، وأن في مسوغات عماد عبد اللطيف وجهة نظر من حيث أصالتها؛ فقد أثبتُّ نسبية رأي عماد عبد اللطيف باقتصار اهتمام فيركلاف على صناعة المعنى أو إنتاجه، وتبين أيضا عدم إهمال فيركلاف لاستجابة الجمهور للتغييرات الاجتماعية في ما يسميه بالصراع الاجتماعي للخطاب، بالقبول أو الرفض والمقاومة. بل إنه عدّ هذه الأخيرة إحدى أركان منهج التحليل النقدي الاجتماعي، كما سيأتي. إلا أن ما يميّز محاولة عماد عبد اللطيف أنها أعطت اهتماما خاصا لاستجابات الجمهور وعناية بالغة بها بخلاف فيركلاف الذي جعلها جزءا من أجزاء (صناعة المعنى).

ويرى فيركلاف أن عصرنا الحاضر قد شهد تحولا كبيرا في العمل الاجتماعي، متمثلا في هيمنة اللغة على التغييرات الكبرى التي حدثت في العقود الماضية. ويتجاوز تأثير استعمال اللغة على الأحداث الاجتماعية وصيرورتها إلى تأثير التغييرات التي تطرأ على الممارسة الخطابية في إحداث التحولات الاجتماعية.

ويستشهد فيركلاف على أثر استعمال اللغة وأثر التغييرات التي تطرأ على الممارسة الخطابية، بجملة أمثلة لم يكن موفقا فيها، إذ يظهر جليا أن أمثلته كلها تنبني على أثر الأحداث الاجتماعية وتغييراته في الممارسة الخطابية وليس العكس، من ذلك استشهاده بفكرة التسويق التي امتدت لتشمل صنوفا مختلفة من الممارسات الاجتماعية كالتعليم والصحة والفنون، إذ أدت فكرة التسويق إلى تغيير هيكلة تلك المجالات وإعادة تحديد مفاهيمه، ولها أيضا تأثير على العاملين وتشكيل هوياتهم الاجتماعية والمهنية، مما يتطلب أيضا إعادة صياغة للممارسات الخطابية. وينطبق الأمر على استشهاده باتجاه الصناعة إلى

مرحلة (الإنتاج في ما بعد فورد) مما أدى إلى تغيير في التنظيم والثقافة والممارسات الخطابية. وهكذا تسير جميع استشهاداته في هذا النسق أي تأثير التغييرات الاجتماعية في الممارسة الخطابية[٨٧].

٤.٤. إعادة الإنتاج والممارسة الخطابية:

١.٤.٤. مفهوم إعادة الإنتاج (reproduction)

يعود مفهوم إعادة الإنتاج إلى كارل ماركس الذي رأى أن عملية الإنتاج تعيد نفسها بصورة حتمية تهدف إلى المحافظة على السلطة عن طريق سلب المقاومة من المستهلكين بالتغيير والتجدد نتيجة (ثقل التقاليد) و(علاقات الولاء العامودية) مما يؤدي إلى أن الإنتاج يبقى ثابتا وأن علاقات الإنتاج تعيد نفسها بصورة حتمية، وهي كما يسميها بعض علماء الاجتماع بقانون الاحتكار في الظاهرة البيروقراطية[٨٨]. وقد قسّم ماركس إعادة الانتاج إلى قسمين: أحدهما: إعادة إنتاج بسيطة، تتمثل بدوام الإنتاج واستقرار علاقات الانتاج إذ يُستبدل الأفراد زمنيا ولكن النظام يعيد إنتاج نفسه بشكل مماثل. والقسم الآخر هو إعادة الإنتاج الموسعة؛ إذ يكون الانتاج متناميا وفي تزايد مع بقاء التنظيم الاقتصادي ثابتا. ويضيف بورّيكو قسما ثالثا أسماه بإعادة الإنتاج المعقدّة، التي تعني تحوّل عملية إعادة الإنتاج وتغيرها عبر الزمن[٨٩].

٢.٤.٤. العلاقة الجدلية بين إعادة الإنتاج وتقبّل المستهلكين (الصراع الاجتماعي):

ترتبط عملية إعادة الانتاج بعلاقة جدلية مع الصراع الاجتماعي عند فيركلاف، فعملية إعادة الإنتاج ليست عملية حتمية كما يرى ماركس، بل خاضعة للصراع وإمكانية التحوّل، فمع أن الناس لا ينتجون الخطاب أو يستهلكونه إلا وفق موارد الأعضاء أو الخبرات الذاتية المخزنة، فالخطاب والممارسة نتاج هذه الموارد، أما إعادة الإنتاج فهي إنتاج هذه الأبنية من جديد أو تحويرها، فإعادة الإنتاج –إذن– ذات طابع محافظ أو ذات طابع تحويلي بحيث تُحدث تغييرات معينة[٩٠]. من هنا تخضع عملية الإنتاج إلى العلاقة الجدلية العلائقية أو الصراع الاجتماعي، فقد تخضع الممارسة الخطابية إلى إعادة الإنتاج بتأثير التغيرات الاجتماعية وهيمنة السلطة، وقد يحصل العكس بأن تُسهم الممارسة الخطابية للمستهلكين في إعادة إنتاج المجتمع بإعادة إنتاج الهويات الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية، والنُظم المعرفية والعقائدية[٩١].

٥. دراسةِ جدليةِ الخطاب والبناء الاجتماعي:

مر الحديث عن أن اهتمام تحليل الخطاب بالكشف عن عناصر الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية، أي الكشف عن (الأصناف والضروب والأساليب) بحسب تقسيم فيركلاف وعليه يسعى تحليل الخطاب إلى الكشف عن (بنية النص) و(الممارسة الخطابية) و(والممارسة الاجتماعية). زيادة على رصد (استجابات الجمهور). وسأتناول هنا مجموعة قضايا تتعلق بطبيعة دراسة جدلية الخطاب والتشييدات الاجتماعية، وعلاقة التحليل الاجتماعي بالتحليل النقدي للخطاب، ومن ثم آلية التحليل الاجتماعي.

١.٥. نسبية نتائج دراسةِ جدليةِ الخطاب والبناء الاجتماعي (الصراع الاجتماعي):

في النظرتين المتكاملتين لجدلية العلاقة بين الخطاب والتشييدات الاجتماعية، يبقى الخطاب عنصرا لغويا– اجتماعيا عند فيركلاف، وتحتاج دراسة تلك العلاقة الجدلية إلى بحث عبر تخصّصي وهو شكل من أشكال الأبحاث بين التخصّصية، يدمج التخصصات معا لمعالجة تلك الجدلية[٩٢]، يزاوج بين التخصص اللغوي والنظرة الاجتماعية. ومع هذا تبقى نتائج تحليل الخطاب غير مستنفدة لكل ما يمكن أن يقال عن النصوص، فلا يوجد تحليل كامل ونهائي للنص، فهي معرفة جزئية، وانتقائية، ولا وجود لتحليل موضوعي يصف كل ما في النص بما هو موجود، فقدرتنا على تحديد الموجود نسبية وجزئية، وتحليل الخطاب يختار أسئلة عن أحداث اجتماعية معينة دون أخرى للإجابة عليها في البحث[٩٣].

٢.٥. العلاقة بين تحليل الخطاب الاجتماعي والتحليل النقدي للخطاب عند فيركلاف:

ينظر فيركلاف إلى البنية الاجتماعية على أنها بنية غير مكتملة؛ إذ لا يتسم أي بناء اجتماعي بالتكامل المطلق، إذ يصف فيركلاف (حرية الكلام) بالأسطورة بالغة القوة؛ لوجود القيود الكثيرة جدا على المشاركة في مختلف أنواع الكلام، وهي غير منفصلة عن القيود الأعم الممثلة بقيود الممارسات الاجتماعية[٩٤]. لهذا يسعى البحث الاجتماعي عنده إلى (تحسين

الأداء)، أما التحليل النقدي للخطاب فهو مدخل مُعِين للتحليل الاجتماعي، ويهدف إلى (تحرير الإنسان)[٩٥]. وقيمة التحليل النقدي للخطاب في كونه موردا من موارد (الكفاح ضد الهيمنة)، ويسهم في معالجة الأخطاء الاجتماعية؛ كالظلم وعدم المساواة وفقدان الحرية وغيرها[٩٦]. ويكتفي فيركلاف بالنظرة التحررية في دراساته[٩٧].

من هنا تنبني استراتيجية خطاب (تحسين الأداء) على مقاصد أو نوايا سليمة ولا تضمر البحث عن مكاسب شخصية مضمرة في خطابات توعوية، لهذا ينكشف سبب عدم إدراج فيركلاف لـ(خطاب تحسين الأداء) ضمن موضوعات التحليل النقدي للخطاب الذي يعتني بنقد ممارسات خطابات السلطات المهيمنة التي تنوي تسليع الخطابات وتجريدها من مضامينها وقيَمها التربوية والأخلاقية لتكون سلعة غايتها إعادة انتاج السلطة أو تمكينها.

٣.٥. منهج التحليل النقدي الاجتماعي:

يضع فيركلاف أربعة شروط للبحث النقدي للخطاب ورصد جدلية العلاقة بين الممارسة الخطابية والبناء الاجتماعي[٩٨]، تلك الشروط هي:

١.٣.٥. أن يكون التحليل متعدد الأبعاد: بمعنى مراعاة الطبيعة الجدلية بين التغير الخطابي والتغير الاجتماعي، من جهة، والكشف عن العلاقة بين الخصائص النصية للخطاب بوصفه نصا، وبين الخصائص الاجتماعية للخطب بوصفه حدثا خطابيا، من جهة أخرى.

٢.٣.٥. أن يكون التحليل متعدد الوظائف: من حيث رصد أثر الممارسات الخطابية في التغيير في (المعرفة) و(العلاقات الاجتماعية) (والهويات)، بالإفادة من نظرة هاليداي إلى اللغة بوصفها متعددة الوظائف. والإفادة من نظرة فوكو المنطقية العلائقية للخطاب.

٣.٣.٥. أن يكون منهجا تاريخيا: بالنظر إلى الأجل الطويل لنظم الخطاب في مؤسسات معينة أو المجتمع برمته، فالعلاقات بين نظم الخطاب (الممارسة الخطابية) والمؤسسات الاجتماعية تتغير تدريجيا. وأن ينظر إلى التناص في النصوص؛ فالنصوص تُبْنى من نصوص أخرى سابقة عليها.

٤.٣.٥. أن يكون التحليل نقديا: بالكشف عن الأسباب الخفيّة لـ(إنتاج الخطاب) والسعي إلى التغيير الاجتماعي، وتجنب النظرة (الحتمية) –بالمصطلح الماركسي– إلى التغيير الخطابي بوصفه عملية ذات اتجاه واحد تمتد من القمة إلى القاعدة، بمعنى الكشف عن الصراع الاجتماعي القائم بين المقاومة والهيمنة؛ فقد يقاوم المستهلكون أو يتبنون جوانب التغيير القادمة من فوق أو يحاربونها فقط.

٦. الخاتمة:

تتبلور خلاصة نتائج البحث بما يأتي:

- ترتبط العلاقة الجدلية بين الخطاب والتشييدات الاجتماعية بـ(الصراع الاجتماعي) بين خطاب مُهيمِن وخطاب مقاوِم.
- تتجرّد نظرة فيركلاف للعلاقة الجدلية بين الخطاب والتشييدات الاجتماعية من النظرة (الحتمية) الماركسية، والقول بوجود صراع خطابي اجتماعي بين طرفين.
- ترتبط فكرة العلاقة الجدلية بين الخطاب والتشييدات الاجتماعية بفكرة التسليع وموقف المستهلكين من الخطاب المُنتَج.
- يتكون مفهوم جدلية الخطاب والتغيير الاجتماعي عند فيركلاف من شقين، أحدهما: تفاعلي بالتأثير المتبادل بين الممارسة الخطابية والممارسات الاجتماعية غير الخطابية، والآخر: بكون الممارسة الخطابية جزءا من ممارسة أعم هي الممارسة الاجتماعية. وأن بين الشقين صلات وارتباط وتعاضد. وقد أُثبتت صحة الشقين بتحليل ممارسة النفاق.
- مرّت صيرورة تصور فيركلاف لمكونات العملية الاجتماعية بمرحلتين: تمثلت الأولى في كتابه اللغة والسلطة، إذ لم يكن تقسيمه لمكونات العملية الخطابية ناضجا تماما، وتمثلت المرحلة الثانية في دراساته اللاحقة التي انتهت إلى أن

العملية الخطابية تتكون من ثلاثة عناصر متشابكة هي: (البنى الاجتماعية، والممارسة الاجتماعية، والأحداث الاجتماعية)، وتتكون الممارسة الاجتماعية من خمسة عناصر هي: (الفعل والعلاقات والأشخاص والعالم المحسوس والخطاب). أما الخطاب –بوصفه عنصرا من عناصر اللممارسة الاجتماعية– فيتكون من ثلاثة عناصر، هي: (الأصناف والضروب والأساليب) التي عبّر عنها بـ(الفعل والعلاقة والهوية). وقد انتهينا إلى إمكانية استعمال عناصر الخطاب الثلاثة السابقة على كل ممارسة اجتماعية غير خطابية وعدم الاكتفاء بحصرها على الخطاب فقط؛ لكون الخطاب صورة من صور الممارسة الاجتماعية.

- كشف البحث عن مرجعيات تصنيف فيركلاف لمعاني الخطاب الثلاثة المتمثلة بالمرجع اللساني كما هو عند هاليداي، والمرجع الأركولوجي كما هو عند فوكو.
- عرَض البحث نظرة فيركلاف الاقتصادية لكل ممارسة اجتماعية وللممارسة الخطابية خصوصا، من حيث (تسليعها). وأن نظرته التسليعية قد مرت بمرحلتين؛ إحداهما رؤيته في كتاب اللغة والسلطة بالاهتمام بالنص لكونه سلعة وبالمتلقي كونه مفسّرا مع بيان الموارد التي يتطلبها إنتاج النص أو تفسيره. والأخرى: أنه اعتنى في دراساته اللاحقة بالنظرة الاقتصادية أكثر من السابقة وزاد عليها عنصرا آخر فصارت مكونات تسليع الخطاب؛ إنتاج النص، وتوزيعه، واستهلاكه (تفسيره)، مع بيان موارد الأعضاء التي تتطلبها عمليتا الإنتاج والاستهلاك.
- شخّص البحث العوامل التي تؤدي إلى كون الممارسة الخطابية مؤثرة في الممارسات الاجتماعية غير الخطابية ومغيّرة لها.
- عرض البحث آلية التحليل النقدي للخطاب اجتماعيا عند فيركلاف بناء على النظرة التسليعية بتشخيص ثلاثة أبعاد للخطاب، هي: (بوصفه قطعة نصية، وبوصفه ممارسة خطابية، وبوصفه ممارسة اجتماعية).
- ناقش البحث رؤية الدكتور عماد عبد اللطيف بزيادته عنصر (استجابة الجمهور) أو(بلاغة الجمهور) إلى تحليل فيركلاف الثلاثي بالنظر إلى تسليع الخطاب. وانتهت المناقشة إلى أن استجابة الجمهور متحصّلة في نظرة فيركلاف؛ فهو ينظر إلى العلاقة بين الخطاب والنظام الاجتماعي على أنها صراع خطابي فقد يجابَه الخطاب بالرفض أو المحاربة وقد يُهيمن الخطاب على المستهلكين، إلا أن ما يميّز محاولة عماد عبد اللطيف أنها أبرزت استجابة الجمهور واعتنت بها في التحليل بخلاف منهج فيركلاف الذي عدّ دراسة الاستهلاك جزءا من دراسة (صناعة المعنى).
- كشف البحث عن مواطن تأثير الخطاب في الممارسة الاجتماعية من حيث إعادة بناء الهويات وإعادة بناء العلاقات وإعادة تنظيم المعرفة.
- توصل البحث إلى عدم دقة فيركلاف في استشهاداته على أثر الخطاب في تغيير التشييدات الاجتماعية على الرغم من تأكيد ذلك الأثر.
- تتميز دراسة جدلية الخطاب عند فيركلاف بأنها نسبية لعدم وجود تحليل مكتمل يصف تلك الجدلية بدقة.
- ميّز فيركلاف بين البحث الاجتماعي الهادف إلى الارتقاء بالأداء وبين التحليل النقدي للخطاب الهادف إلى تحرر الإنسان، وأنه يهتم بالأخير في تحليل الخطاب. وقد قدّم البحث تسويغات لرؤية فيركلاف هذه.
- لمنهج فيركلاف في تحليل الخطاب أربعة اشتراطات، هي: أن يكون متعدد الأبعاد، وأن يكون متعدد الوظائف، وأن يكون منهجا تاريخيا، وأن يكون منهجا نقديا.

٧. التوصيات:

- يوصي البحث أن يوجه الباحثون في تحليل الخطاب في العالم العربي اهتمامهم بدراسة العلاقة الجدلية بين الخطاب والتشييدات الاجتماعية في موضوعات مختلفة؛ فالاكتفاء بدراسة تأثير البنى الاجتماعية في الخطاب هي دراسة مجدية لكنها قاصرة، يعوزها الكشف عن أثر الممارسة الخاطبية في التشييدات الاجتماعية.
- تخصيص دراسة تبحث عن جذور البحث في أثر الممارسة الخطابية في التشييدات الاجتماعية في العالمين الغربي والعربي.
- تخصيص دراسة تكشف عن أثر الخطاب في التشييد الاجتماعي في نظر فوكو والتحليل النقدي للخطاب بحسب منهج تحليل التصرفات.

الهوامش:

(١) الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ٨٧

(٢) المصدر نفسه: ١٦. ونورمان فيركلاف، ٢٠١٦، ٦٠.

(٣) الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ١٩.

(٤) المصدر نفسه: ٨٨.

(٥) السنن الكبرى، النسائي: ١٠/ ٧٤ رقم الحديث ١١٠٦٢.

(٦) ينظر: اللغة والعقل والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، جون سيرل: ٢١٨.

(٧) صحيح البخاري، البخاري: ٣٥/٧ رقم الحديث ٥٢١٩.

(٨) الميزان في تفسير القران: ٥/ ١١٦.

(٩) ينظر: مقاربة جدلية علائقية للتحليل النقدي للخطاب في البحث الاجتماعي، نورمان فيركلاف، ضمن كتاب مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: روث فوداك وميشيل مايير: ٣٣٨.

(١٠) المصدر نفسه: ٣٣٨-٣٣٩.

(١١) ينظر: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف:٦١.

(١٢) ينظر: المصدر نفسه: ٥٦.

(١٣) ينظر: مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، بريجيته بارتشت: ١٤٥-١٤٦ و١٤٧.

(١٤) ينظر: اللغة والسلطة، نورمان فيركلاف: ٤٢و٦٠.

(١٥) ينظر: المصدر نفسه: ٥٠ و٥١.

(١٦) ينظر: المصدر نفسه: ٥١.

(١٧) ينظر: المصدر نفسه: ٤٥.

(١٨) ينظر: المصدر نفسه: ٦٠-٦١.

(١٩) ينظر: المصدر نفسه: ٤٩.

(٢٠) ينظر: المصدر نفسه: ٥٠

(٢١) ينظر: المصدر نفسه: ٥١.

(٢٢) ينظر: المصدر نفسه: ٦١-٦٢.

(٢٣) ينظر: مقاربة جدلية علائقية للتحليل النقدي للخطاب في البحث الاجتماعي، نورمان فيركلاف، ضمن كتاب مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: روث فوداك وميشيل مايير: ٣٤٢.

(٢٤) ينظر: الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ٤٤. ومقاربة جدلية علائقية للتحليل النقدي للخطاب في البحث الاجتماعي، نورمان فيركلاف، ضمن كتاب مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: روث فوداك وميشيل مايير: ٣٤٠.

(٢٥) ينظر: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف: ٥٦.

(٢٦) اللغة والسلطة، نورمان فيركلاف: ٤٥.

(٢٧) ينظر: المصدر نفسه: ٤٥.

(٢٨) ينظر: الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ٨٧

(٢٩) تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف: ٦٣.

(٣٠) ينظر: الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ٩٠.

(٣١) المصدر نفسه: ٨٦.

(٣٢) ينظر: المصدر نفسه: ٧٨.

(٣٣) ينظر: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف: ١٩-٢٠.

(٣٤) ينظر: الخطاب والتغير الاجتماعي: نورمان فيركلاف: ١٦.

(٣٥) ينظر: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف: ٥٦.

(٣٦) ينظر: المصدر نفسه: ٦١.

(٣٧) ينظر: الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ٨٧-٨٨. وتحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف: ٦١. ومقاربة جدلية علائقية للتحليل النقدي للخطاب في البحث الاجتماعي، نورمان فيركلاف، ضمن كتاب مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: روث فوداك وميشيل مايير ، ٢٠١٤، الصفحة ٣٤٠-٣٤١.

(٣٨) ينظر: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف: ٦٤

(٣٩) ينظر: المصدر نفسه: ٥١

(٤٠) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٩-١٤٠.

(٤١) ينظر: المصدر نفسه: ٦٤ و١٤٠.

(٤٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٤٨

(٤٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٤٩-٢٥٠.

(٤٤)ينظر: مقاربة جدلية علائقية للتحليل النقدي للخطاب في البحث الاجتماعي، نورمان فيركلاف، ضمن كتاب مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: روث فوداك وميشيل مايير: ٣٤١.

(٤٥)ينظر: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف: ٦٥.

(٤٦) ينظر: مقاربة جدلية علائقية للتحليل النقدي للخطاب في البحث الاجتماعي، نورمان فيركلاف، ضمن كتاب مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: روث فوداك وميشيل مايير: ٣٣٩.

(٤٧) تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية،، د.عماد عبد اللطيف، بحث منشور في مجلة فصول، دراسات نقدية، العدد ٨٣- ٨٣،سنة ٢٠١٢-٢٠١٣: ٥١٠.

(٤٨) ينظر: علم اللغة النظامي مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، محمود أحمد نحلة: ١٣٦.

(٤٩) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٧.

(٥٠) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٩-١٤٠.

(٥١) ينظر: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف: ٦٦.

(٥٢) ينظر: المصدر نفسه: ٦٦-٦٧.

(٥٣) ينظر: الخطاب، سارة ميلز، ٢٠١٦، الصفحات ٢٩ و٣٠-٣١.

(٥٤) ينظر: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف: ٦٨- ٦٩.

(٥٥) ينظر: المصدر نفسه: ٦٩.

(٥٦) ينظر: المصدر نفسه: ٧٠ و٧١.

(٥٧) ينظر: معجم الدراسات الثقافية، كريس باركر: ١١٥- ١١٦.

(٥٨) ينظر: المصدر نفسه: ٢٣٩.

(٥٩) ينظر: ثقافة الاستهلاك وما بعد الحداثة، مايك فيزرستون: ٥٩.

(٦٠) ينظر: معجم الدراسات الثقافية، كريس باركر: ٦١.

(٦١) ينظر: المصدر نفسه: ١١٦.

(٦٢) ينظر: الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ٩٠ و٩٥.

(٦٣) ينظر: اللغة والسلطة: نورمان فيركلاف: ٤٣-٤٥.

(٦٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤٥-٤٦.

(٦٥) ينظر: الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ٩٠.

(٦٦) المصدر نفسه: ٢٥٦.

(٦٧) ينظر: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف: ٢٤-٢٦.

(٦٨) الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ٢٥٦.

(٦٩) ينظر: المصدر نفسه: ٩٦ و١٠٤ و١٠٥.

(٧٠) ينظر: المصدر نفسه: ١٠٣.

(٧١) ينظر: المصدر نفسه: ١٠٤.

(٧٢) ديوان نصر بن سيّار الكناني أمير خراسان، جمع وتحقيق: عبد الله الخطيب: ٤٠.

(٧٣) ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير؛ ٢٣٠/١٣.

(٧٤) ينظر: الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ١٠٤.

(٧٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٦. وتحليل الخطاب، بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، د.عماد عبد اللطيف، بحث منشور في مجلة فصول، دراسات نقدية، العدد ٨٣- ٨٣، سنة ٢٠١٢-٢٠١٣: ٥١٢.

(٧٦) ينظر: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف: ٣٨ و٣٩ و٤٠ و٤١.

(٧٧) ينظر: تحليل الخطاب، بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، د.عماد عبد اللطيف، بحث منشور في مجلة فصول، دراسات نقدية، العدد ٨٣- ٨٣،سنة ٢٠١٢-٢٠١٣: ٥١٢.

(٧٨) ينظر: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف: ٣٣-٣٤.

(٧٩) ينظر: اللغة والسلطة، نورمان فيركلاف: ١٠٠.

(٨٠) ينظر: الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ١٠٠ و١٠٦.

(٨١) ينظر: المصدر نفسه: ٨٧-٨٨.

(٨٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢١.

(٨٣) ينظر: اللغة والسلطة، نورمان فيركلاف: ١٠٠.

(٨٤) ينظر: معجم الدراسات الثقافية، كريس باركر: ٣٤٠.

(٨٥) ينظر: المصدر نفسه: ٣٨٨.

(٨٦) ينظر: اللغة والسلطة، نورمان فيركلاف: ٣٨ و٤١.

(٨٧) ينظر: الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ١٩- ٢١ وينظر بقية أمثلته هناك.

(٨٨) ينظر: المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ر.بودون وف.بوريكو: ٤١.

(٨٩) ينظر: المصدر نفسه: ٣٩-٤٠.

(٩٠) ينظر: اللغة والسلطة، نورمان فيركلاف: ٦٣.

(٩١) ينظر: الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ٨٧-٨٨.

(٩٢) ينظر: مقاربة جدلية علائقية للتحليل النقدي للخطاب في البحث الاجتماعي، نورمان فيركلاف، ضمن كتاب مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: روث فوداك وميشيل مايير: ٣٣٩. وتحليل الخطاب، بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، د.عماد عبد اللطيف، بحث منشور في مجلة فصول، دراسات نقدية، العدد ٨٣- ٨٣،سنة ٢٠١٢-٢٠١٣: ٥١٠.

(٩٣) ينظر: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف: ٤٥-٤٦.

(٩٤) ينظر: اللغة والسلطة، نورمان فيركلاف: ٩٣.

(٩٥) ينظر: المصدر نفسه: ٣٣٩.

(٩٦) المصدر نفسه: ٣٤١.

(٩٧) ينظر: دليل تحليل الخطاب، ديبورا شيفرون وديبورا تانن وهايدي إ.هاملتون: ٤٥٢.

(٩٨) ينظر: الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف: ٢٠-٢١.

قائمة المصادر:

- القرآن الكريم.

١. البداية والنهاية، ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط١، ١٩٩٨.
٢. تحليل الخطاب، بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، عماد عبد اللطيف، بحث منشور في مجلة فصول، دراسات نقدية، العدد ٨٣- ٨٣،سنة ٢٠١٢-٢٠١٣.
٣. تحليل الخطب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، نورمان فاركلوف، ترجمة د.طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، العراق- البصرة، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٩.
٤. ثقافة الاستهلاك وما بعد الحداثة، مايك فيزرستون، ترجمة: أ.د. فريال حسن خليفة، مراجعة أ.د. فتحي عبد الله درّاج، مكتبة الأسرة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
٥. الخطاب، سارة ميلز، ترجمة عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٦.
٦. الخطاب والتغير الاجتماعي، نورمان فيركلاف، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٥.
٧. دليل تحليل الخطاب، ديبورا شيفرون وديبورا تانن وهايدي إ.هاملتون، ترجمة: د.خليفة الميساوي، هيئة البحرين للقافة والنشر، المنامة، ط١، ٢٠٢٠.
٨. ديوان نصر بن سيّار الكناني أمير خراسان، عبد الله الخطيب، جمع وتحقيق، مطبعة شفيق، بغداد، ط١، ١٩٧٢.

٩. السنن الكبرى، النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ)،حقّقه وخرّج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠١ م.
١٠. صحيح البخاري، البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية بالمطبعة الأميرية الكبرى، ط١، ١٤٢٢هـ.
١١. علم اللغة النظامي مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٩.
١٢. اللغة والعقل والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، الجزائر– الجزائر، والمركز الثقافي العربي، المغرب– الأحباس، والدار العربية للعلوم، لبنان- بيروت، ط١، ٢٠٠٦.
١٣. المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ر.بودون وف.بوريكو، ترجمة: د.سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٦.
١٤. مقاربة جدلية علائقية للتحليل النقدي للخطاب في البحث الاجتماعي، نورمان فيركلاف، ضمن كتاب مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: روث فوداك وميشيل مايير، ترجمة: حسام أحمد فرج وعزة شبل، مراجعة وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤.
١٥. مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، بريجيته بارتشت، ترجمة د.سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠٠٤.
١٦. معجم الدراسات الثقافية، كريس باركر، ترجمة جمال بلقاسم، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠١٨.
١٧. الميزان في تفسير القران، للعلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت- لبنان، ١٩٧٠.
١٨. اللغة والسلطة، نورمان فيركلاف، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٦.